مجلة الباحث
موقع المجلة: https://journals.uokerbala.edu.iq/index.php/bjh/

البحث عن الهوية والهوية البديلة في شعر السري الرفاء

م.د.ضحى ثامر محمد عميرة
جامعة كربلاء / كلية الهندسة

معلومات الورقة البحثية

الكلمات الرئيسية :

ماهية الهوية ، تمركزات الهوية الذاتية، تمركزات الهوية المكانية.

المستخلص باللغة العربية:

تنطلق هذه القراءة في ديوان وأخبار الشاعر السري الرّفاء بالاعتماد على ما شهدته حياته من تحولات مكانية ومحاربة في رزقه كانت نتيجته اضطرابا ذاتيا زعزع هويته الاصيلة شيئا فشيئاً إلى أن اتخذ هوية بديلة تواسيه في محنته الوجودية . لذا كانت قراءة البحث تقوم في التعرف على ماهية الهوية وأثرها في الإنسان وانتمائه، ثم الوقوف عند أبرز تحولات الهوية في حياة السري الرفاء التي صورها ونقلها شعريا بوصف الشعر روحا تنفذ الى خلجات النفس وتظهر على سطح اللغة. فسلط الضوء على تمركزات الهوية الذاتية، بينما تجلّت في محوره الثاني تمركزات الهوية المكانية.

1- المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين الأطهار .

لقد تجلت مجموعة من الثيمات في حياة الشاعر السري الرّفاء الثقافية ، قلدته هويات غير مستقرة كانت ركيزة للملاحقة والمفاتشة وتعليل أسبابها ؛ لما للهويةمن خاصية تفاعلية مركبة خاضعة لتحولات الحياة ، لذا كان اختيارنا للشاعر ؛ لما يمثل شعره من رحلة بحثٍ عن الانتماء والحفاظ على الهوية الثقافية، رحلة ذات بدائل مختلفة ومتنوعة؛ لأن حياة الشاعر تبحث عن ما هو موازٍ لما فقده، ولقد شكلت الهوية الذاتية والهوية المكانية ظاهرة موضوعية تنم عن رغبة قاهرة للتعبير عنها ؛ لأنها من اكثر الهويات المركبة والمهددة ، ولقد اعتمدنا على المنهج السياقي في تحليل النص الشعري ، ومعرفة أسباب قوله .

2- التمهيد : ماهية الهوية

2-1 الهوية لغةً : تمثل الهوية "حقيقة الشيء أو الشخص الذي تميزه عن غيره" (1)، وحقيقة الشيء تعني وجوده، وهذا الأخير يتألف أو يتشكل بصورة ذاتية ولا ينخلق دفعة واحدة، فهو يحتاج في مراحل استكشافه وإدراكه إلى سلسلة من التصورات والوعي بوجودها حتى يكتسب ذاته وهويته.

2-2 **الهوية اصطلاحا :** تتغير وفق الظروف والتبدلات التي تصيب الإنسان في حياته وتتبدل من حين إلى آخر؛ لأنها ليست نظام معرفي خالص يمكن العبث به، بل هي تتطور وتنتقل من مرحلة إلى أخرى عبر الفترات الحرجة، فطالما يكون الشخص متفاعلاً مع الآخر الذي يصدمه ويجبره أو يجذبه فهو يكون مصدراً للازدواجية والتناقض(2) ، مما يستدعي التغيير والاستبدال في منظومة الإنسان الفكرية والحياتية إلا ما تعرف بالهوية المطلقة التي لا يمكن أن تتغير مع الزمن مثل هوية الاسم أو اللقب الذي يلتصق به أو ينتمي إليه.

إنّ أبرز فكرة ممكن أن توضح لنا مفهوم الهوية هي الانتماء الفكري الذي هو إمكانية يتميز بها الإنسان دون سائر الموجودات الأخرى، فالهوية تعني انتماء الفرد إلى الوجود من حيث ممارسة إمكانية التفكير، ولكي تكون

الهوية أصلية ولكي يكون الانتماء أصيلاً كذلك؛ يجب أن نتخلى عن التفكير في الوجود، بما أن الوجود هو وجودنا(3).

فالهوية هي انتماء يشعر به الإنسان ويتحسسه ويتفقده ويبحث عنه، إذا ما شعر تجاهه نوع من النقص، فهو وعيه بنفسه أولاً وماذا يريد لها وإلى أي مجتمع أو أمة ينتمي أو لأي طبقة، وماذا سلب منه، وبموقعه في خريطة الوجود وعلاقاته ؟

3-2 الهوية الأدبية

لكل إنسان مجموعة من الهويات التي تتباين فيما بينها وتكمل إحداهما الأخرى، ومنها الهوية القومية، والهوية الدينية، والهوية الاجتماعية، وهوية العمل، والهوية الشخصية التي تبحث عن الذات، والهوية الثقافية .

وما يعنينا من هذه الهويات هي الهوية الثقافية لا سيما الأدبية منها بوصفها الحجر الأساس في الكشف عن بواطن المجتمعات أولاً، ومن ثم ما تتكلم به الشخصية شعراً أو نثراً عن ذاتها، إذ يكشف الشعر هوية قائله بوصفه نصاً لغوياً تواصلياً ورمزاً ثقافياً "فلئن كان هناك شعر يجعل من اللغة علامة على الهوية وعلى الكينونة ذاتها، بحيث يكاد أن يؤسس عليها وجود الإنسان، فهو الشعر العربي"(4).

والشعر بما يحمل من رموز وإيحاءات وعوالم واقعية ومتخيلة فهو يضم بين دفتيه ظاهرة أو مبطنة مجموعة من الهويات المتنوعة والمتغيرة التي تعبر عن مجموعة من السمات التي تميز شخصا عن آخر وتشكل حضوراً واضحاً في مدونته الشعرية، وتمثل تميزه واختلافه عن غيره؛ ذلك لأنّ الشاعر يُخضع نصه لمتغيرات واقعه الشخصي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والمكاني؛ لأنّ الهوية الأدبية عُرفت بأنها "سمات مميزة للكاتب، أو الفنان، تبرز في نتاجه، وتشيع فيه لوناً معيناً هو في واقعه، محصل للمران الطويل، وللموهبة المثقفة، وقد تكون الهوية أيضاً مجموع الخصائص العينية المميزة لأثر فني أو لمجموعة من الآثار"(5).

وفي هذا المضمار يمكن أن نطرح سؤالاً: هل بإمكان الشاعر أن يتخذ من شعره وسيلة ليحافظ على هويته؟

وحقيقة القول في ذلك أنّ الإنسان بصورة عامة في ظل أساليب القمع والظلم والتهميش والمطاردة والتهجير من الصعب عليه الحفاظ على هويته في ظل سلطة الآخر المهيمنة عليها، أنّ الإحساس بالتهميش تجعل الذات تلجأ إلى سبل أخرى من أجل أن تؤسس هوية ذاتية تكسب وجودها عبرها تكون بديلة عما فقدته جراء القوة المهيمنة، وتبقى الذات مع هذه الهوية الجديدة قلقة وعزاء الشاعر الوحيد أنّ كلامه الشعري يعينه على استرجاع هويته الأصلية وترويج إليها كلما هبت رياح الشوق والحنين.

والشاعر السري الرفاء هو خير ما تجلى في شعره مفهوم الهوية الأصيلة والبديلة بما تميزت به حياته من مجموعة من التغيرات والتحولات في مستويات عدة، أنّ هذا البحث يحاول أن يرتكز على محوري الهوية الذاتية والهوية المكانية لما تضمنا بين دفتيهما تقلبات متعددة وبدائل يقابل بها الاصلي المفقود.

3-:تمركزات الهوية الذاتية في شعر السري الرّفاء

3-1 الهوية القبلية ، والنسب

حمل الشاعر العربي قديماً هويته الشخصية أوّلاً من اسم القبيلة، فوجوده مرتبط بوجودها وعزه وفخره مرتبط بعزها وفخرها، فهذا أول ما تتجلى فيه هوية الإنسان في الحياة العربية القديمة هو نسبه وانتماؤه للقبيلة التي ينتهي إليها آباؤه، فهي أولى الهويات التي تلتصق به ويلتصق بها مهما كان هذا النسب، وهذا الالتحام مبعثه الشعور بوحدة النسب أي وحدة الدم التي تربطه بافراد القبيلة(6).

وهذا الانتماء يدعوه إلى التمسك والحرص الشديد بنسبه والاعتزاز به؛ لأنه بمنزلة الهوية الشخصية التي تميزه بين الجماعة، فلا غرابة أنّ يجعل نسبه في الذروة من الشرف والرفعة وأن الاجداد والآباء الذين ينتمي إليهم في مقام السادة العظماء(7).

والسري الرفاء واحد من الشعراء الذين يتفاخرون بأصلهم وانتمائهم ، فهو السريُّ بن أحمد الكندي، يكنى بأبي الحسن، فهو عربي الأصل من قبائل كندة اليمنية من أصل بني النجار، الذين هاجروا إلى العراق(8) .

وله قصيدة يؤكد انتمائه وفخره بنسبه وأجداده وآبائه قائلاً: (9) (مجزوء الكامل)

كَرُّ الخطوبِ على الفـــــوارس وطلابها الصّيد الأشاوس
والدَّهـــرُ يطـــرقُ بـــالفوادحِ أو يُصبِّحُ بالدَّهـــارس
غـــازٍ يُطفِّـــــرُ بـــالنُّـــفوسِ وبالذَّخيرات النَّفـــائس
أردى مقـــــــاول تُبّـــــــعٍ وسطا على أحرار فارس
غـــــاداهـــــم متنمِّـــــراً فغدت سُعودهمُ منـــاحِس
وملـــــوك كنـــدة حطَّ عـــــن تلك الأســرَّة والقرابـس

إن هذا الفخر بقومه الذين ينتمون إلى قبيلة كندة اليمنية هو صورة من صور الهوية الشخصية التي يحملها بين الجماعة فما يصيبها يصيبه، وما أصابه لن يصيبها، إذ يبقى الشموخ والعز للجماعة لا للفرد، وهذا الانتماء هو أول خطوة لإثبات هويته الذاتية القبلية، وهي الهوية الثابتة المستقرة التي لا بديل لها .

3-2 هوية المهنة / اللقب

تمثل هوية اللقب أو الكنية ثيمة أيديولوجية كانت العرب قديماً منذ الجاهلية والاسلام توظفها ؛ لأنّ العرب كانت تكره الخطاب بالاسم والمجاهرة شفاهة به، ويُعدُّ اللقب أو الكنية تعظيم وتوقير لذاتها ، وعادة ما يرتبط اللقب بحالة الملقب الاجتماعية أو الصحية أو مرتبط بالمهنة التي يعمل بها ، مثلما هو الحال لدى السري الرفاء، إذ التصق به لقب الرّفاء من مهنته العملية ، إذ كان يرفو الثياب ؛ بسبب عسر حالته فاضطر إلى أن يتخذ من الرفو مهنة ، وأن يكون في سوق الرفائين (10)

وأخذ يشكو حاله وضيق عيشه قائلاً: (11) (السريع)

يُنبيك عن صحَّةِ أخباري عسري من العشق وإيساري
وسُوقةٌ أفضلـهم مُرتـــــدٍ نقصاً ففخري بينهم عــاري
وكانت الإبرةُ فيما مضــى صائنـــةً وجهـــي وأشعاري
فأصبح الرِّزقُ بها ضيِّقا كأنَّــه مـــن ثُقبها جـــاري

فدلالة اللقب عليه هو بحد ذاته امتلاك لهوية وثقافة مجتمع بأكمله، وما يقابل هذه الهوية العينية التي لا تتبدل ، هي الهوية التي تتحرك بين الذات و الآخر ، ولا تحوي ما يؤكد وجود نواة تحويها الشخصية بصورة دائمة(12) .

3-3 الهوية الأدبية

إنّ عمل السري الرّفاء قد اكسبه صفة ثابتة فهو سرعان ما استبدله بعمل آخر مستغلاً به موهبته الأدبية، إذ كان محباً للأدب منذ صغره، فساعده ذلك على إيجاد عمل جديد في تطريز الكتب ونسخ الشعر، مما أهله إلى العمل في خزانة الأمير ناصر الدولة الحمداني في الموصل، مما يعني تحسين حالته المادية (13)، فكان هذا العمل بديلاً إيجابياً.

أنّ عمل السري الرّفاء البديل في خزانة الكتب اكسبه هوية جديدة تتجلى بالهوية الأدبية / الشعرية التي وصل بها إلى مكانة متقدمة في بلاط سيف ناصر الدولة، وسيف الدولة الحمدانيين فقد أهلته إلى العمل في بلاط الحمدانيين بوصفه خازناً للمكتبة وشاعراً لدى سيف الدولة الحمداني، ولم تكن هذه الهوية الأدبية بطاقة مكتسبة من عمله فقط، فهي لا تلغى إذا ما فقد عمله ، بل هي راسخة وثابتة ؛ لأنها منبعثة من روح محبة للأدب أولاً ومن ثم السعي إلى تعزيز ثباتها واحقيتها للشاعر، حين عمل على تكوين خزانة كتب خاصة به تضم مختلف مصنفات المعرفة الأدبية(14).

وقد وصفها قائلا: (15) (الكامل)

عندي إذا ما الرّوض أصبح ذابلاً تُحَفٌ أغضُّ من الرِّياضِ شمائلا
خرسٌ تحدِّث آخراً عن أوَّلٍ بعجائبٍ سلفت ولسن أوائلا
سُقيت بأطراف اليراعِ ظهورها وبُطونها طُلاًّ أحمّ ووابلا
تلقاك في حُمر الثِّياب وسودها فتخالهنَّ عَرائسا وثواكلا
وتركت ما قد فات من دهرٍ مضى حتى تراه بعين فكرك ماثِلا
وإذا خلوت بهنَّ ضمآن الحشا منحتك من صوب العقول مناهلا

كان أكثر الشعر محملاً بالرموز، والهوية بأشكالها المختلفة هي واحدة من هذه الرموز والإيحاءات وقصيدة السري الرّفاء هذه تشير إلى أنه كان يمتلك كتباً يعتز بها، ويلوح أثرها الفكري والعملي، فخزانته هذه التي وضعها هي هوية ذاتية للشاعر أولاً، ومن ثم هوية ثقافية لمدينته الموصلَ، إذ قال السري الرفاء مصرحا قصيدته هذه: إنّ ربيع الموصل إذا ما مضى وترك ازهار روضة ذابلة يضوع من احد جوانب داراته الجميلة ربيع يضم كائنات خرساء لكنها افصح المخلوقات هي الكتب التي تحترز بين دفاتها على وابل العلوم وتتدثر بالجلود الحمر والسود اللونين اللذين ما يزالان أكثر الألوان شيوعاً في أغلفة الكتب هذه التي تنقل للقارئ علوم القدماء، وتشحن العقول لكي تثبت علوم الحاضر من أجل مستقبل أكثر إشراقاً وتقدماً(16) .

فالهوية هي الكينونة المفتوحة على ما كان وما سيأتي، وتكسب الشيء هويته حتى قبل أن تكتمل ملامحه، وعناصره المادية المباشرة، وإن اختلفت الكيفيات التي يتم انطلاقا منها مداركه، ومن ثم تسميته وتمثيله(17)، فخزانته هذه هي هوية ذاتية للشاعر ومن ثم هوية ثقافية لمدينة (الموصل) .

4-3 هوية الانتساب لشعراء بلاط سيف الدولة الحمداني

إنّ الهوية الحمدانية، والهوية الأدبية جعلتا من السري الرفاء شخصية لها حضورها وهويتها في بلاط سيف الدولة الحمداني، ينافس بها الشعراء مادحاً ومفتخراً وواصفاً، ولكن سرعان ما تبدلت هذه الهوية الثابتة لتتحول إلى هوية قلقة مضطربة معاتبة للأمير تحمل شعوراً عدمياً، حين تعرضت إلى هجمة شرسة أعلنها الخالديان وهما شاعران وخازنا كتب الأمير سيف الدولة الحمداني، والرفاء شاعر الأمير ففعلت المنافسة وروح الحسد الاتهام فيما بينهما بالسرقة والانتحال، إذ ذكر الثعالبي أنه قرأ نسخة من شعر السري الرفاء بخطه ووجد من بين الأشعار أبيات نسبوها لأنفسهم(18)، وهذا العداء كانت نتيجته حرمان الرفاء من رغد عيش الأمير وقد أكد البغدادي ذلك قائلاً: "بالغا في ايذائه وقطعاً مراتبه من سيف الدولة وغيره"(19). وعلى وفق ذلك، حدث تحول في هويته العملية من شاعر بلاط سيف الدولة إلى شاعر فقط ومن رغد العيش والثراء إلى حالة العسر والفاقة، ومن شاعر مادح إلى شاعر معاتب لسيف الدولة، قائلاً: (20) .

(الوافر)

علام حرمتني إنشاد شعري لديك وقد تناشدهُ الأنامُ
ولي فيك التي تُلغي القوافي إذا ذُكرتْ ويُمتهنُ الكلامُ

فقد حاول بهذا العتاب أن يجد هويته التي اضاعها الخالديان لدى سيف الدولة، وأمام هذه الذات الواثقة تتجلى في أبيات أخرى، ذات منهزمة حين تبدو في حالة مراقبة للوجود ولنفسها وبحث متواصل عن الوجود الضائع حتى تدخل في حوار أو جدل دائم مع نفسها تبثه شعرياً، قائلاً: (21)

(البسيط)

أشكو إليك حليفي غارةٍ شهرا سيف الشِّقاق على ديباج اشعاري
ذئبين لو ظفرا بالشِّعر في حرمٍ لمـــــــزَّقاه بأنيـــــابٍ وأظفـــــــاري
سّلا عليه سيوف البغي مصلتةً في جحفـــــلٍ مـــــن شنيع الظُّلم جرَّار

وحين لم يجد بديلاً آخر لما تعرض له، اتخذ من الكتابة بديلاً ومعادلاً لمعاناته، وإثبات لموهبته الشعرية والذاتية، لأنّ الهوية "رؤية أو موقف من قضايا الوجود الكبرى، تحمل تاريخها بوصفها علاقة بين الكائن والمحيط، وتحمل مطلقها بوصفها استجابة دائمة لذات تحاول معرفة ما هي عليه "(22)، لذا فأنّ الشاعر يفتخر بشعره في محاولة منه للمحافظة على كينونته، قائلاً في قصيدته نفسها: (23)

واللهِ ما مدحـــــــا حيّاً ولا رثيـــا ميتاً ولا افتخرا الا بـــأشعاري
إن توّجاك بدرٍّ فهو من لُججي أو ختَّماك بياقوتٍ فـأحجاري

إن الاستبداد والتهميش الذي تعرض إليه السري الرّفاء استهدف مسخ هويته الشعرية في محاولة من لدن الخالديين للقضاء على وجودها، فعندئذ تتم السيطرة عليه من الداخل نفسياً وبالتالي هزيمته، إذ أكثر ما يؤذي الذات هو الفقد لما اعتادته من حياة أو مال أو صديق ...الخ، وهذا الاختلاف والتحول الذي تعرض له السري الرفاء هو بحد ذاته هوية؛ لأن الهوية تتشكل من قضايا الائتلاف والاختلاف، إذ أن "هوية شخص ما أو جماعة معينة مصنوعة في جزء كبير منها فهي من هذه التماهيات في قيم أو مبادئ أو مثل عليا أو نماذج أو ابطال التي يجد الشخص نفسه فيها"(24) .

وعندما تتهدد هوية الذات الإنسانية؛ فأنّ الإنسان يعمل على استرجاع هذه الهوية نفسها، وإن تغير المكان أو الزمان؛ لأنه يشعر حقه قد سُلب وضاع، لذلك يسعى بكل الطرق من سلام وحرب واغتراب وغربه وحُلم وتمنٍّ؛ لأجل استرجاع هذه الهوية المفقودة أو إيجاد بديل يعوضها، وهذا ما صار عليه شاعرنا الرّفاء حين اتخذ من بغداد ووزيرها المهلبي بديلاً مكانياً، فقد أصبحت بغداد بديلاً عن حلب وهي تساويها حضارة ومكانة رفيعة، والمهلبي بديلاً عن سيف الدولة، وأراد الشاعر من هذا الاستبدال المتعادل موضوعياً وذاتياً أنّ يسترجع الهوية ذاتها التي كان يتمتع بها في حلب مكاناً وشخصاً؛ لأنه حين تفتقد الهوية تفتقد الحرية، لذا ولأجل المحافظة على هويته الادبية ومكانته ، لذا أخذ يمدح الوزير المهلبي في بغداد ، إذ تتجلى الهوية في تفعيل بطاقتها بالعمل والفعل لأجل المحافظة عليها، فكان لا بُدَّ على السري الرفاء من العمل عليها ، قائلاً في مديحه: (25)

(الطويل)

وساجل معروف الوزيرِ ومن له بعُرفٍ يعُمُّ الأرضَ شرقاً ومغربـــا
هُمامٌ يعُدُّ السمهريَّـــة معقـــلاً يعوذُ بـــــه ، والمشرفيَّـــة مكسبا
حليمٌ إذا أحفظتـــه زاد حلمـــــه فكيف يرى عن مذهب الحقِّ مذهبـا

إن نظرية الاختيار الحر هي إحدى البدائل التي تسعى الوجودية إليها حينما تتبنى الذات الشاعرة حرية التنقل، واختيار البدائل المكانية أو العملية وسيلة لإثبات الذات والتمرد الواعي في هذا الوجود(26)، والسري الرفاء بهذا الاختيار الحر أراد أن يفرز مضاداته المكبوتة لمواجهة ما تعرض له من تهميش في حلب، وتقربه من البديل الجديد ما هو إلا للتعبير عن انتمائه الجديد، وتجديد لهويته الذاتية والأدبية.

4- تمركزات الهوية المكانية في شعر السري الرّفاء .

يمثل المكان محوراً أساسياً من المحاور التي تدور حولها نظرية الهوية، إذ يدخل في جدلية مع الأشخاص ونفسياتهم والأحداث ودلالتها؛ لأنه مركز الانتماء الأول للإنسان، والهوية تعني وعي الفرد بوجوده المكاني والزماني(27)، فالمكان هو الهوية الثانية بعد هوية النسب أو الاسم التي يتصف بها الإنسان، والهوية المكانية تخضع خضوعاً مطلقاً للحدث وللحالة النفسية، لذا فهي متنوعة قابلة للتغيير والتحويل الواقعي والنفسي.

4-1 المكان الأصلي/ الموصل

السري الرّفاء شاعرٌ قلق بانتمائه المكاني، إذ يحمل هويتين أصيلة/ الموصل، وهوية بديلة/ حلب وبغداد، وأماكن أخرى ، فبعد أن ضاقت نفسه في الوطن / الموصل هويته الانتمائية الأولى، وشعر بالاختناق فيها ؛ بسبب حاسديه وأعداء نجاحه، صار يأمر نفسه بالرحيل عن دار ظلم فيها حفظا لكرامته من الذل والهوان ، قائلاً: (28)

قوِّض خيامك عن دارٍ ظُلمت بها ... وجـــانب الذُّلَّ إنَّ الـــــذُّلَّ يُجتنـبُ
وارحل إذا كانت الأوطان مضيعةً ... فالمندِلُ الرَّطبُ فـــي أوطانه حطبُ

يشير النص الشعري إلى شعور نفسي ينبئ بالإحباط وفقدان الهوية الإنسانية مجبراً؛ لأنّ الذات تعيش أزمة وجودية خانقة ارغمتها على الرحيل والبحث عن بديل مكاني آخر تجد هويتها الذاتية أولاً فيه " فبقدر تحقيق المكان لرغبات الذات يتحقق الوطن، وبقدر ابتعاده عن هذه الرغبات أو إنكاره يبتعد الوطن"(29)، لذا تحولت الهوية المكانية من مكان الانتماء الأول الأهل والأحبة ومراتع الصبا إلى حلب حيث الأمير سيف الدولة الحمداني صاحب المجد والكرم والسخاء وقد ذاع صيته في بلاطه، وأصبحت حلب هي البديل الذي انتهت إليه ذات الشاعر والتصقت بهويته الأدبية والتاريخية وتجاوزت انتمائه المكاني الأم / الموصل، سعياً من الشاعر إلى تعزيز ثباته وأحقيته للعيش في الأرض / حلب من أجل الحفاظ على هويته، إلا أن فكرة الوطن تبقى عالقة في اللاوعي مهما توفرت له سبل العيش الرغيد، إذ المكان الأول يمثل حيزاً كبيراً في الذاكرة؛ لأن بين الذاكرة والمكان علاقة إقامة متبادلة، إذ " يقيم المكان في الذاكر ، وتقيم الذاكرة في المكان، الإقامة بين الذاكرة والمكان هاجس تضافر والتحام أكثر منه فعل مشاركة بين طرفين تقارب بينهما لحظة زمنية منفلتة ليعاودا فور انقضائها حياتيهما الخاصتين حيث ينسحب كل منهما إلى ضفة، بعيداً عن الآخر، يرنو إليه ولا يراه، يصغ لهواجسه ولا يسمعها، ما يحدث من خيانات الذاكرة للأماكن المتذكرة هو دفاع ضمني عن ماضي تجاربنا بما يحركها من قوة وما يتجسد عنها من قيم نحمي من خلالها أماكننا الأولى من جور الزمان " (30) .

يكتم الشاعر ألم الشوق في قلبه ويترجمه في كتاباته الشعرية، ليظل يعانيه صراعاً ذاتياً، وهو القائل : (31) (الوافر)

منازلنا التـــي لبست بـــلاها ... وحالت بعدَ نضرتها حُـــلاها
خطتك ركابنا لحلـولِ خطبٍ ... أناخ على رُباك فما خطاهـــا
منحناها القِلـــى كـرهاً ولـــولا ... صروفُ الدَّهرِ لم نختر قِلاها
يميلُ بنا الهوى طربـــا إليها ... فنبكيها ونسعـــدُ مـــن بُكاها
تلقّاها الزَّمان بخفضِ عيشٍ ... وعاودها السُّرورُ كمـــا بداها
نقول لها: سقاها الغيثُ ريّاً ... وقـــــلَّ لها مقالتنـــا سقاها

إنّ الضمير (نا) يمثل مركز القصيدة؛ لأنه ضمير جمع وبه يشير الشاعر إلى نفسه في محاولة لتعظيم الذات التي تعاني همومها مفردة منفية، ويحمل دلالة الانتماء المتجذر في أعماق الشاعر، وهي تشير إلى الأمكنة التي كان يسكنها الشاعر في الموصل، وكيف كانت وإلى أين أصبحت، وليس من شك في أنّ الشعر هو ترجمة عالم الداخل إلى حقائق لا سيما عندما يزداد ضغط الخارج على الداخل/ الذات، لذا يمثل الشعر هوية أصيلة/ حقيقية يكون بديلاً للانتماء الذاتي المهمش أو الانتماء المكاني؛ لأن الشعر يهب قائله إحساساً بالتعويض.

ويبدو أن فكرة الانتماء تحتم على الشاعر أنه مهما أقتلع عن وطنه، تظل قادرة على النمو في الغربة(32)، وعليه فالسري الرّفاء يتخذ من الحلم بديلاً آخراً يلجأ اليه حين يتمنى أن يزور الموصل ويرى جمال قصورها وابنيتها، وهو يقول: (33) (الكامل)

فمتى أزورُ قِبـــابَ مُشرِفةِ الـــذُّرا ... فأرودُ بينَ النَّســـــرِ والعيُّـــوقِ
وأرى الصّوامِعَ في غوارِبِ أكمِها ... مثل الهوادج في غـوارِبِ نُوقِ

حُمـــرا تلوحُ خلالـــها بيـــضٌ كما فصَّلت بالكافـــورِ سمط عقيقِ

فالحلم هو إعادة الذات إلى هويتها أو بؤرتها الحقيقية، وعلى وفق ذلك فأنّ هوية السري الرفاء المكانية في حلب هوية قلقة غير متعايش معها روحيا؛ لأنها لم تلبِ الحاجة النفسية للشاعر، إذ بقي ولاؤه الحقيقي للموصل ، فما استذكاره إلا ليؤكد انتماءه وليحقق نوعا من التوازن الوجودي / مكان الغربة، والوجداني / الحنين الى الوطن.

4-2 – اماكن الدير والحانات

وتبدو الذات في شعر الرفاء قلقة في حالة بحث دائم ومحاولة تبصر مستمر لهويتها الموسومة بالقلق والاضطراب، لاسيما بعد ما تعرضت له من اضطهاد وتهميش في الموصل وبعدها حلب، لذا نجده يتخذ من أماكن اللهو والخمر بديلاً يشعر به عن تفرد ذاته وتميز وجوده، واصفاً ذلك: (34) (الرمل)

يا خليليّ اطلبا وتـــــــركما تجـــداه بين كـــأسٍ ووتـــر
شاقِني مُستشرفُ الدَّير وقد راح صـــوبُ المُزنِ فيه وبكر
اهـــــواءٌ رقَّ فـــــي ارجائه أم هوىً راق فما فيـــه كـــدر؟
وخدودٌ سفرت عـــــن وردها أم ربيعٌ عن جنى الوردِ سفر؟
مجلسٌ ينصرفُ الشَّربُ وما طُويت عن بُسطة تلك الحبـــر
وكأنَّ الشَّمس فيـــــه نثرت ورقـــا مـــن بيـن أوراق الشّجر
بين غُدرٍ تقـــــع الطَّيرُ بها فتـــراهُنّ ريـــاضاً فـــي غُـــدر

إنّ البديل الذي اتخذه الشاعر وإن كان بديلاً مؤقتاً فهو مقصد الراحة والاطمئنان، وفيه يتمتع بالشرب والغناء والجواري ما ينسيه همومه وآلامه، والهروب من الواقع ، ومن هنا أضاع هذا المكان إطاره الخاص، وصار بديلاً عاماً يلجأ إليه أصناف من الناس؛ لقضاء الوقت وطلب المتعة، والابتعاد عن هموم العامة ليصبح هوية مكانية بديلة يلجأ اليه الشعراء والخلفاء والوزراء وعامة الناس بما يؤديه من وظائف معنوية، لتكتسب الأديرة بذلك سمة من سمات الهوية الثقافية لذلك خلدها الشاعر في ديوانه الذي لا يخلو من الوصف الدقيق والتغني بالحياة المليئة بالحركة والحيوية بداخلها، صاباً بها مشكلاته الذاتية والمكانية .

4-3 القصور والعيش الرغيد

السري الرّفاء الذي اعتاد العيش في القصور ووصفها وبما تحمل من رغد العيش، نراه تحولت حياته من حياة القصور وقربه من الخلفاء والوزراء سواء في حلب أم بغداد، إلى حياة الفقر ومن حياة القصور إلى العيش في بيت كالسجن إذ وصفه (35) (البسيط)

لي منزلٌ كوجارِ الضّبِّ أنزله ضنكٌ تقاربَ قُطراهُ فقد ضاقا
أراه قالب جسمي حين أدخله فما أمُدُّ به رجـــلا ولا ساقـــا
فلست أعتدُّه رزقا أُســـــرُّ به وهل تُعدُّ سجونُ الناسِ أرزاقا؟
أُناشدُ الغيث أن يجتازه ابدا ولامع البرق أن يغشاه إحراقا

يوضح النص الشعري أثر التحول المكاني على نفسية الشاعر بعد أن كان البيت المتمثل بالقصور يحمل صورة ايجابية اليفة ، يتحول بتغير ظروفه المعيشية الى بيت عدائي يفتقد عبره مصادر الرزق فصار شبيها بالسجن الذي يفرض القيود ، فالمكان مثل موضوعا للهوية الثقافية ، يكشف عن الانتماء الحقيقي والبديل.

الخاتمة

الحمد الله رب العالمين ، والصلاة والسلام عل سيدنا محمد وآله الطيبين .

بعد هذه المدارسة والمفاتشة في شعر السري الرّفاء حول حجم المأساة التي يصورها الشاعر وهو في حيرة من تقييم وجوده الآني ودهشته أزاء المتغيرات التي احاطة كيانه وهويته وهي متأرجحة بين الأصل والبديل ، توصلنا الى أبرز النتائج :

1- أنّ هوية النسب والانتماء للقبيلة أولى بطاقات الانتماء الذاتي واثبات الوجود الآني التي دأب على اثباتها شعريا السري الرفاء ، وهي من الهويات اللصيقة غير قابلة للتبديل أو التغيير .
2- يمثل العمل ثيمة معرفية للإنسان ، يكسبه الوجود ، والرّفاء لقب اكتسبه الشاعر من عمله وهو يرفو الثياب ، وهي من الهويات القابلة للتبديل حسب تغير الحال مع ثبات اللقب في بعض الاحيان، لذا تجرد عنها

عمليا الشاعر لا لقبيا بما اسبغت عليه موهبته الأدبية فحولته من رفاء الى نساخ وشاعر في خزانة وحضرة الأمير ناصر الدولة الحمداني في الموصل .

3- إنّ الاستبداد والتهميش الذي تعرض إليه الشاعر استهدف مسخ هويته الذاتية أولاً ومن ثم هويته الشعرية واتهامه بالسرقة ، لذا تحولت حياته وتبدلت احواله من حياة الترف والنعيم ورغد العيش في كنف الدولة الحمدانية واحد الشعراء المقدمين لدى سيف الدولة الحمداني الى حياة العوز والفقر ومن شاعر مادح الى شاعر معاتب ، وهذا التحول هو بحد ذاته هوية تشكلت من مفاهيم الاختلاف والائتلاف .

4- لقد أصاب هوية الشاعر المكانية تحولات جراء مجموعة من الظروف المعيشية وما لاقاه من حرب الخالديين آلت به أن يقصد حلب بدلاً من الموصل ، ويقصد بغداد بدلاً من حلب ، وبدلاً من حياة القصور ومجالسة الخلفاء والوزراء صار تحولاً عكسياً سلبياً حين آلت إليه حياته إلى الأديرة وبيوت خانقة وضيق الرزق والعيش، وهذا ما جعل

الشاعرفي بحث دائم عن هويته وانتمائه الذاتي عبر هذه البدائل؛ لأنه عانى الظلم في كل محطة مكانية اتخذها بديلاً، لذا كانت هوية السري الرفاء هوية مضطربة قلقة بانتمائها الذاتي والمكاني مع كل البدائل التي ركب أمواجها سواء كانت موضوعية أم معنوية؛ لأن الهوية تتشكل وتتصير من تجربة معيشية حية يتمتع صاحبها بالوعي الذاتي لخلق البديل.

الهوامش :

(1) المعجم الوسيط : 998 .
(2) ينظر : الهوية وفلسفة اللغة العربية : 15- 17 .
(3) ينظر : الوجود والموجود : 259 . \
(4) موسيقى الحوت الازرق ،الهوية ، الكتابة ، العنف : 41 .
(5) المعجم الادبي : 287 .
(6) ينظر : الانسان في الشعر الجاهلي : 51
(7) ينظر : م.ن : 53 ، 85
(8) ينظر : ينظر : يتيمة الدهر : 2 : 137 ، وديوان المحب والمحبوب والمشروب والمشموم : 6 .
(9) ديوان السري الرفاء : 258.
(10) ينظر : يتيمة الدهر : 2: 137 .
(11) ديوان السري الرفاء : 235 .
(12) ينظر : الذات عينها كآخر: 70 – 71 .
(13) ينظر : موسوعة اعلام الموصل : 1: 276.
(14) ينظر : خزائن كتب الموصل عبر العصور : 39- 40
(15) ديوان السري الرفاء : 590 .
(16) ينظر : رحلة ابن النديم إلى الموصل : 378.
(17) ينظر : الهوية وفلسفة اللغة العربية : 13- 14 .
(18) ينظر : يتيمة الدهر : 2: 119
(19) تاريخ بغداد : 9 : 194 .
(20) ديوان السري الرفاء : 424.
(21) م.ن : 194 .
(22) الهوية كنص ممكن (بحث) : 101.
(23) م.ن : 195 .
(24) الذات عينها كآخر : 262.
(25) ديوان السري الرفاء : 42.
(26) ينظر : الوجودية في الميزان : 43 .
(27) ينظر : اشكالية النص المفتوح بين التحول والترابط – مقارنة نقدية في قصيدة مدينة بلا مطر : 75.

(28) ديوان السري الرفاء: 435.
(29) مفهوم الوطن في فكر الكتابة العربية : 121- 122.
(30) المكان العراقي جدل الكتابة والتجربة: 13 – 14 .
(31) ديوان السري الرفاء : 764.
(32) ينظر : جماليات المكان (بحث): اعتدال عثمان: 76 .
(33) ديوان السري الرّفاء: 475.
(34) م.ن : 235.
(35) م.ن : 511.

المصادر والمراجع

1- الانسان في الشعر الجاهلي ، د. عبد الغني احمد زيتوني ، مركز زايد للتراث والتاريخ ، الامارات العربية المتحدة ، ط1 ، 2001.
2- تاريخ بغداد ، ابو بكر احمد بن علي بن ثابت بن احمد بن مهدي الخطيب البغدادي (463هـ) ، تحقيق: د. بشار عواد ، ط1 ، دار الغراب الاسلامي ، 2002 .
3- خزائن كتب الموصل عبر العصور ، بسام ادريس الجلبي ، د.ت
4- ديوان السري الرفاء، تحقبق، د. حبيب حسين الحسني ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1981.
5- الذات عينها كآخر، بول ريكور ، ترجمة : جورج زيناتي ، المنظمة العربية للترجمة ، 2005 .
6- رحلة ابن النديم إلى الموصل، الدباغ ، د.ت .
7- المعجم الادبي ، د. جبور عبد النور ، دار العلم للملايين ، ط2 ، 1984 .
8- مفهوم الوطن في فكر الكتابة العربية، شيرين ابو النجا ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 2003 .
9- المكان العراقي جدل الكتابة والتجربة، لؤي حمزة عباس ، ط1، دراسات عراقية ، بغداد ، 2009 .
10- موسوعة اعلام الموصل ، بسام ادريس الجلبي ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، كلية الحدباء الجامعة ، 2004 ، مراجعة ، الاستاذ هاشم يحيى الملاح ، وحدة الحدباء للطباعة والنشر.
11- موسيقى الحوت الازرق ،الهوية ، الكتابة ، العنف، أودنيس ، دار الاداب ، بيروت ، ط2 ، 2011.
12- الهوية وفلسفة اللغة العربية ، الحسين الزّاوي ، منتدى العارف ، بيروت ، ط1 ، 2014 .
13- الوجود والموجود، مارتن هيدجر ، ترجمة : د. جمال محمد احمد سليمان ، المكتبة الفلسفية ، 2011.
14- الوجودية في الميزان ، مصطفى علوش ، ط1 ، مجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ، 1985 .
15- المحب والمحبوب والمشروب والمشموم ، السري الرفاء ، تحقيق :مصباح غلاونجي ط1 ، مجمع اللغة العربية بدمشق ، سوريا ، 1986 . ،
16- يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر ، ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري ، تحقيق: د. محمد مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1983.
17- المعجم الوسيط ، ابراهيم انيس واخرون ، ط2 ، دار المعارف، القاهرة، 1962م .

البحوث والدوريات :

1- الهوية كنص ممكن (بحث) ، محمد الأسعد ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز الانماء القومي ، بيروت ، ع 17 ، 1982
2- جماليات المكان (بحث): اعتدال عثمان، مجلة الاقلام ، ع2 ، 1986
3- اشكالية النص المفتوح بين التحول والترابط – مقارنة نقدية في قصيدة مدينة بلا مطر، نادية هناوي سعدون ، موقع الناقد العراقي ، http://www.alnaked-aliraqi.net,

ABSETRACT

Al-Sari Al-Rafa's poetry represents a journey in search of belonging and preserving cultural identity. It is a journey with diverse and varied alternatives, as the poet's life seeks something parallel to what he has lost. Instead of the craft of copying, he adopted copying books. This was a successful transformation and a major leap in his life, transporting him from one state to another and shaping his original identity.

This is the first indication of difference. Instead of Mosul, he headed for Aleppo, and instead of Aleppo, he headed for Baghdad. Instead of a life of palaces and associating with caliphs and ministers, this was a negative, reversible shift as his life devolved into monasteries, stifling homes, and the narrowness of livelihood. The truth is that the poet searched for his identity and personal belonging through these alternatives, as he suffered injustice at every spatial stop he chose as an alternative. Thus, Al-Sari Al-Rafa's identity was a turbulent identity, anxious in its personal and spatial belonging, with all the alternatives he navigated, whether objective or moral. This is because identity is shaped and transformed by a living experience whose owner possesses self-awareness and the potential to create an alternative.